جواسيس العصر الحديث

نابليون بونابرت وإمبراطور الجواسيس

من فرط اهتمام نابليون بونابرت بالجاسوسية ، واعترافه بفضلها فى كسب المعارك الحربية ، أنه قال إن جاسوسا واحدا فى المكان المناسب ، يساوى ٢٠٠٠٠ مقاتل فى الميدان . وهو الذى اكتشف مواهب «**كارل شوليستر**» الذى كان يعمل مهربا ، فعينه قومسيرا عاما لجيوش الإمبراطورية الفرنسية فى الميدان ، لبراعته فى أعمال المخابرات ، وإسهامه العظيم فى نجاح العمليات العسكرية ، وأطلق عليه لقب «**إمبراطور الجواسيس**» .

قامت الحرب بين النمسا وفرنسا . وكانت قوات الإمبراطور الفرنسى «نابليون» ترابط على طول نهر «الراين» ، تتأهب للهجوم . وفى النمسا كانت حامية عسكرية قوية تحمى قلعة «**آلم**» الاستراتيجية ، التى تحرس الطريق إلى «فينا» عاصمة النمسا .

نابليون

فى أواخر عام ١٨٠٤ حضر إلى «فينا» نبيل مجرى شاب ، وسيم، أنيق . اتسم باللباقة والكياسة ، وسرعان ما فاز بتعاطف وحب المجتمع الفيينى ، بسبب قصته الحزينة ، ذلك لأن نابليون طرده من فرنسا، وفقد كل شئ . لذلك شعر كثيرون بأن الشاب المجرى ربما يكون مفيدا لأزمة النمسا ، خصوصا وأن لديه معلومات جيدة عن الدولة الفرنسية ، وقواتها المسلحة . وهؤلاء نظموا له لقاء مع «**المارشال ماك**» قائد جيش النمسا ، وقدموه له .

أعجب «ماك» بعمق إدراك الشاب النبيل للموقف العسكرى أيما إعجاب . فضمه إلى هيئة أركان حربه ، وجعله رئيسا للمخابرات ، المنصب الذى لم يحلم به الشاب ، لأنه لم يكن سوى «كارل شوليستر» ، كبير جواسيس نابليون ، المدسوس على النمسا .

انطلق «شولميستر» يعمل فى الحال ، مغذيا القائد النمساوى بمعلومات مزيفة . ادعى أنه عرف من مصادر موثوقة أن الجيش الفرنسى فى حالة انهيار ، وقدم ـ إثباتا لذلك ـ خطابات مزورة زعم أنها من ضباط فى وحدات فرنسية متمردة . ورشا اثنين من ضباط الأركان : «**ويندیت**» و «**رولسكى**» ، أوعز إليهما أن يسمعا «المارشال ماك» قصصا مشابهة . ومن ناحية أخرى نشر نابليون فى صحف خاصة بفرنسا أخبارا تبدو وكأنها تؤكد روايات «شولميستر» وصاحبيه .

صدق «ماك» أن القوات الفرنسية المتمردة تتقهقر خلف خط نهر «**الراين**» ، فقاد قوة من ٣٠٠٠٠ رجل . خرج بهم من قلعة «**أولم**» الحيوية ، على أمل مباغتة جيش نابليون المنهار . وكانت تلك هى الفرصة التى ينتظرها المارشال «**ناى**» الفرنسى ، ضرب ضربته من الأمام . وحوصر الجيش النمساوى : قوات الچنرال «**سولت**» والچنرال «**دوبونت**» من جهة ، وقوات الچنرال «مارمونت» والچنرال «لانس» من جهة أخرى . وكان على «ماك» أن ينسحب ، لكنه وجد قوات الچنرال «مورات» تسد عليه خط الرجعة ، فاضطر إلى الاستسلام ، وانتهت المعركة بنصر حاسم لفرنسا بدون إراقة دماء ، وبعد أقل من شهر دخل الفرنسيون «فينا» واحتلوها لأول مرة فى التاريخ . واعتبر المارشال «ماك» خائنا فسجنوه إلى أن أعلن موقف «شولميستر»

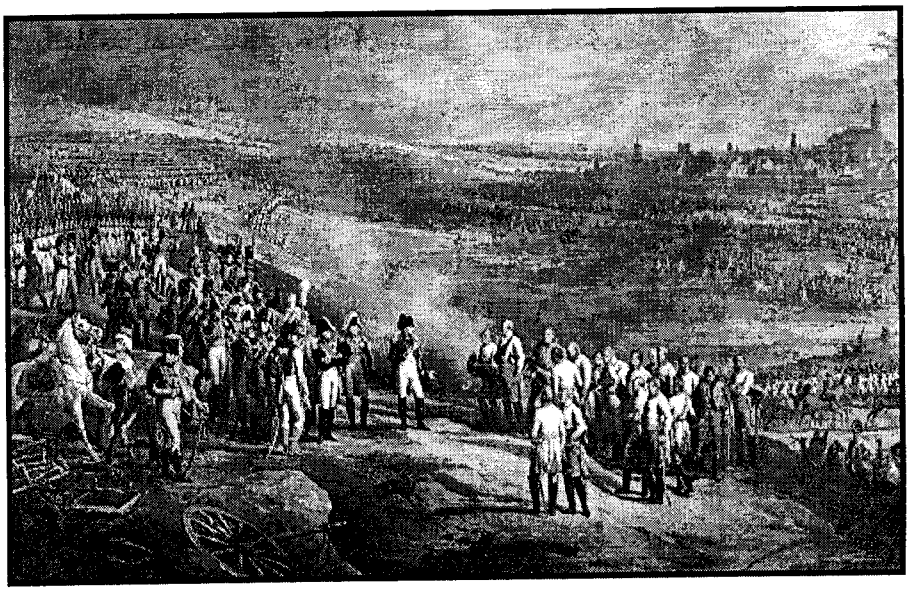

استسلام الجيش النمسوى

كانت تلك أعظم عمليات إمبراطور الجواسيس «شوليستر» ، ولم تكن الوحيدة، فقد تورط فى عملية خطف واغتيال شاب من أعضاء الأسرة المالكة السابقة ، وفيما بعد عمل جاسوسا لنابليون فى إنجلترا وفى فرنسا ذاتها . وكان نابليون يجزل له العطاء مقابل خدماته ، فأصبح مالكا لمزرعتين عظيمتين يفاخر بهما . أعرب لخلصائه دائماً عن أمله فى أن يمنحه «نابليون» وساما . وكان الحصول على وسام جوقة الشرف الفرنسية هو أعز أمانيه . لكن نابليون كان حازما فى تلك النقطة ، فقد قال فى ذلك : «الذهب هو المكافأة المناسبة الوحيدة للجواسيس» .

فقد «شوليستر» نصف ثروته حينما خسر «نابليون» معركة «**واترلو**» عام ١٨١٥ ، وفقد النصف الآخر فى الأسهم والسندات المالية وتجارة الماشية وتوفى إمبراطور جواسيس نابليون عام ١٨٥٣ فقيراً معدماً ، لا يملك سوى كشك طباق فى أحد شوارع مدينة «ستراسبورج» .

★ مخابرات آل روتشيلد

يعتبر بيت «روتشيلد» اليهودى فى لندن أول جهاز مخابرات اقتصادية مدنى خاص ، يعمل لصالح أصحاب رؤوس الأموال ، وقد استفاد آل روتشيلد كثيرا من جمع المعلومات فى تنمية أموال مصرفهم عام ١٨١٥ ، كما أفادوا المتعاملين معهم ، وحققوا أهدافا استثمارية ضخمة . وكانوا يحصلون على المعلومات الهامة ذات العلاقة بأسواق المال ، قبل أن تحصل عليها الحكومات .

من ذلك مثلا أن أوروبا كلها كانت تترقب نتيجة معركة «واترلو» . وعرف «ناثان روتشيلد» فى لندن أن الإنجليز كسبوا الحرب ضد نابليون ، فأغرق سوق المال بسندات على حكومة بريطانيا ، وعرضها للبيع . وقلده كل من كانوا يرقبون تحركاته معتقدين أن الإنجليز خسروا المعركة ، فهبطت الأسعار . وفى اللحظة المناسبة اشترى «روتشيلد» كل ما فى سوق المال من سندات بأسعار منخفضة ، فلما انتشر خبر انتصار بريطانيا ، ارتفعت أسعار سندات الحكومة البريطانية ، وكسب آل روتشيلد الملايين .

هذا وقد خلت أوروبا من أى جهاز مخابرات منظم لمدة نصف قرن بعد انكسار نابليون ونفيه ، اللهم إلا من آل روتشيلد ، الذين يحصلون على المعلومات قبل أن تحصل عليها الحكومات ، وما زالوا يهتمون بها حتى اليوم لأغراض اقتصادية على الأقل ، ولاشك أنهم استفادوا من شبكات بنوك المعلومات الآلية .

★ ويليهيلم ستيبر وكلاب صيد بسمارك

الأمير فون بسمارك

فى عام ١٨٤٨ تعرض ملك بروسيا «فريدريك ويلهيلم» إلى سخرية جمع من جمهور الغاضبين فى برلين . كانوا فى حالة من هياج خطير . وفجأة اندفع رجل من الزحام نحو الملك صائحا : «الموت للطاغية» ولما وصل إلى الملك المذعور ، قال له فى صوت هامس : «لا تخف يا صاحب الجلالة أنا من رجال البوليس . رجالى منبثون فى الزحام . إنهم حريصون على ألا يمسك سوء» . ثم صاح الرجل بتهديدات أعلى ، ودفع الملك بمنكبيه إلى بوابة تخرجه من الشارع . وظل يدفع الملك ، ثم أحكم إغلاق البوابة . ولما أبعده بمنجاة من الجمهور ، قدم نفسه له ، وكان اسمه «**ويليهلم ستيبر**» .

كان «ستيبر» محاميا شابا طموحا ، يعمل فى نفس الوقت مخبراً سرياً للشرطة . وأعرب الملك له عن امتنانه لحمايته من الجمهور الغاضب ، وعبر عن امتنانه هذا بعد عامين بتعيينه مفوضا للشرطة ، ومن هنا بدأت رحلة «ستيبر» الطويلة كرئيس للمخابرات ، وتوالت أعظم إنجازاته فى الستينات من القرن التاسع عشر . فى هذه الفترة ساعد «بسمارك» رئيس وزراء بروسيا فكسب حربين هامتين : الأولى ضد النمسا ، والثانية ضد فرنسا . كانت مهمة «ستيبر» هى معرفة مدى قوة الأعداء واستعدادهم للقتال . لم يكن من عادته أن يكتفى بالجلوس إلى مكتبه وإلقاء الأوامر على جواسيسه . كان «**كلب الصيد**» الغامض يحب الاشتراك فى عمليات التجسس بنفسه .

قبل حرب النمسا ـ على سبيل المثال ـ طاف بنفسه فى مسارح المعارك المتوقعة، ذهب متنكرا فى شخصية بائع متجول ، ومعه حمل عربة من التماثيل الرخيصة الدينية ، وكان يبيع سرا أشياء داعرة يكسب بها صداقة جنود النمسا والفلاحين الشبان المنحلين الذين يقابلهم ، وتعجبهم صور الفجور والفسق .

وقبل حرب فرنسا ، طاف «ستيبر» بأقاليم العدو ، لكنه فى هذه المرة أرسل آلاف

الجواسيس . فبحثوا عن مواقع مخازن الأسلحة ، وتحصينات الدفاع وأرسلوا تقارير دقيقة عن حالة الطرق الفرنسية ، لكى تتمكن القوات البروسية من التحرك بسرعة حينما تغزو فرنسا . سجلوا قوائم وخرائط بمواقع مزارع تربية الماشية ، حتى تعرف القوات من أين تحصل على الطعام . وكانت هذه الدرجة من الاختراق جديدة على عالم الجاسوسية .

بعد انتصار «بروسيا» ، مد «ستيبر» عملياته فى أنحاء أوروبا ، استخدم فى جاسوسيته عمال سكك حديد أجانب ، وعمال المقاهى والحانات والمطاعم والفنادق والمصانع . وشحن الشركات الألمانية فى الخارج بجواسيسه ، وأصبحت المخابرات الألمانية مصدر الخوف الغالب فى أوروبا . اعتنق «ستيبر» سياسة «التحريف» . فقد أصر على أن يقتل جواسيسه جواسيس العدو كما يقتل الجنود خصومهم فى زمن الحرب . وأعد ملفات بتفاصيل الحياة الشخصية للأثرياء وأصحاب النفوذ ، ليستخدمها فى الابتزاز . وتوفى «ستيبر» عام ١٨٩٢ ، وازدحمت جنازته بزعماء العالم والنبلاء وقيل إن هذا الحشد العظيم لم يحضر جنازته ليعرب عن احترامه وحزنه ، وإنما ليتأكدوا بأن كلب الصيد العجوز مات فعلا .

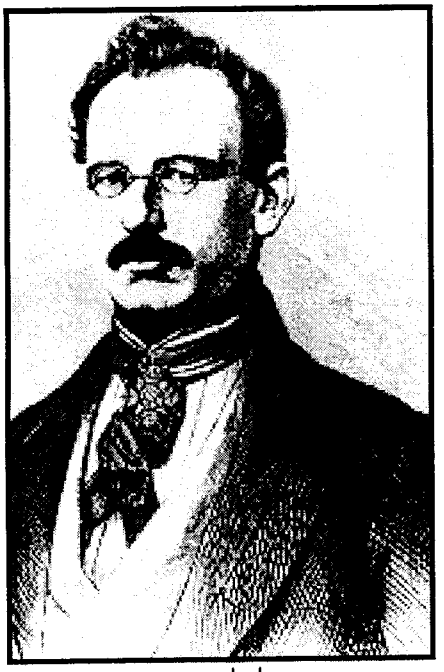

ويلهيلم ستيبر

ومما يذكر أن «ستيبر» استفاد كثيرا من عمله كمحام للمجرمين ، ومن اتصالاته فى عالم الإجرام ، حينما أصبح جاسوس ألمانيا الأول . كما استفاد من آلاف الجواسيس الذين نشرهم فى الخارج وكلفهم بالاهتمام بكل قصاصة معلومات مهما بدت تافهة ، لأنها قد تكون ذات قيمة عالية.

وفى برلين أقام ما يسمى «بالبيت الأخضر» ، يقوم فيه بتصوير ضحاياه فى مواقف مشبوهة تؤثر على مركزهم فى الدولة .

★ ألان بينكيرتون ومخابراته الأهلية

ولد «**ألان بينكيرتون**» فى «جلاسجو» عام ١٨١٩ ، وفى سن مبكر أظهر اهتماما ملحوظا بالإصلاح السياسى وتحسين أحوال الطبقة العاملة ، قبل أن يهاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٨٤٢ . وفى عام ١٨٥٠ أسس وكالة بينكيرتون الأهلية للمخابرات السرية ، وحاز على شهرة ملحوظة خلال سنوات قليلة.

فى أواخر الخمسينات بات واضحا أن النزاع بين الشمال والجنوب سوف يؤدى إلى حمام دماء . ورجح كفة نشوب الحرب انتخاب «**أبراهام لينكولن**» رئيسا للجمهورية عام ١٨٦٠ ، بدأ الجنوب فى إرسال جواسيس إلى الشمال فورا لينشروا دعاية ضد الفيدرالية ، والبحث عن أهداف يمكن تخريبها فى المستقبل .

بدأ وجهاء الشمال يدركون أخطار أنشطة الجنوب ، فعملوا على حماية استثماراتهم ، ومنهم : «صمويل فيلتون» من فيلاديلفيا ، وسكك حديد «ويلمنجتون» و «بالتيمور» . وقد استأجرت الشركة الأخيرة بينكيرتون وعددا من أتباعه لحماية الخط الحديدى من الانفصاليين المتآمرين فى «ماريلاند» . ذهب «بينكيرتون» إلى «بالتيمور» فى فبراير ١٨٦١ حيث قيل إن المتآمرين اختاروها مقرا لقيادتهم ، اصطحب معه «**تيموثى ويبستر**» ، و «**هنرى ديفيز**». الأول ذو خبرة عالية ، والثانى من سكان «**نيو أورليانز**» السابقين ، وقد تعرف بالفعل على عدد من الخصوم .

سرعان ما اكتشف «ديفيز» أن المارشال «كين» ، رئيس شرطة «باليتمور» متعاطف مع الجنوب ، وأعلن بوضوح أنه لن يفعل شيئا ضد أى محاولة للاعتداء على حياة «أبراهام لنكولن» . حاز «ديفيز» تماما على ثقة المتآمرين ، حتى أنهم سمحوا له بحضور الاجتماع النهائى ، الذى نوقشت فيه خطة اغتيال «لينكولن» . على الرغم من أنه لم يحصل على تفاصيل عن شخصية المرشح لارتكاب الجريمة، ولا وسيلة الاغتيال ، إلا أن المعلومات جعلت بينكيرتون يؤكد أن فكرة الاعتداء على حياة الرئيس قد أصيبت بالإحباط .

أبلى «بينكيرتون» بلاء حسنا فى تعامله ضد الانفصاليين ، فلما نشبت الحرب، وأدرك «لينكولن» ضرورة إنشاء جهاز جاسوسية ، طلب الرئيس من «بينكيرتون»

تنظيم الجهاز . وعلى الرغم من أنه كان مخبرا سريا ممتازا ، إلا أنه كان يعرف القليل عن كيفية إدارة المخابرات العسكرية . خلال الشهور التى تلت تأسيس جهاز الخدمة السرية البدائى ، تورط الجهاز فى كارثة تلو الأخرى ، وبلغت كوارثه الذروة بأسر «ويبستر» ثم إعدامه .

تقبل «بينكيرتون» فشله كمدير للمخابرات ، لكن الشمال لم يجد أحدا يحل محله ، إلى أن ظهر «لافابيت بيكر» ، الذى أثبت فيما بعد أنه من ألمع الجواسيس فى التاريخ ، وأبرع مديرى المخابرات . عاد «بينكيرتون» بعد الحرب إلى أعمال المخابرات الأهلية الخاصة ، وركز جهوده على مكافحة قطاع الطرق ، وعصابة كو ـ كولوكس ـ كلان .

★ جرينفيل دودج

تحت إدارة الجنرال «**أليسيس جرانت**» عملت قوة مخابرات ضخمة ، كانت أنشط مثيلاتها وأكثرها فعالية ، وقد أدت واجبها بكفاءة خلال الحرب الأهلية الأمريكية من عام ١٨٦١ـ١٨٦٥ ، وأصبحت النموذج الأول لاستخدام الجاسوسية على نطاق واسع فى الحرب الحديثة .

تعلم «جرانت» فائدة الجاسوسية فى سبتمبر ١٨٦١ ، حينما أخبره عميل أن القوات الكونفدرالية تستعد للزحف نحو مدينة «بادوكا» بولاية «كينتاكى» ، وهى مدينة ذات موقع استراتيجى على ملتقى نهرى «أوهايو» و «تينيسى» تحرك «جرانتى» بسرعة لتأمين البلدة ، واحتلها بدون قتال .

بعد سبعة أشهر ، تعلم جرانت درسا مفيدا آخر حينما أخفق جواسيسه فى أخباره عن احتشاد ٤٠٠٠٠ كونفدرالى ليشنوا هجوما مفاجئا على خطوطه فى «شيلو تشيرش» بولاية «تينيسى» . عزم على ألا يؤخذ على حين غرة مرة أخرى ، فقرر بناء جهاز مخابرات تابع له ، وأسند إدارته إلى البريجادير جنرال «جرينفيل دودج» .

ولد «دودج» فى «ماساشوستس» ، وحصل على درجة علمية فى العلوم العسكرية والهندسة المدنية فى «فيرمونت» و «نيوهامبشاير» ، ثم بدأ حياته العملية المبكرة فى خدمة سكك حديد «ميسيسيبى وميزورى» . ولما قامت الحرب انضم إلى الخدمة العسكرية كولونيلا لفرقة المشاة الرابعة فى «لودا» . وأشرف فى نفس

الوقت على قاعدة «رولا» العسكرية بولاية «ميسورى» ، وأنشأ فيها أول سلاح فرسان فى «تينيسى» ، وأسس قوات منظمة تؤدى الكثير من وظائف الجاسوسية ، للعمل غرب المسيسيبى ، وسرعان ما تطورت وأنتجت شبكة مخابرات مدنية ، استخدمت نساء لجمع المعلومات خلال خطوط الاتحاديين وتقديمها لقوات «دودج» .

فى موقعه «**بى ريدج**» ، أصيبت ثلاث خيول بطلقات نارية وهو يمتطيها ، كما أصيب «دودج» بجرح بالغ ألزمه الفراش شهرا ، ورقى إلى رتبه «بريجادير جنرال» ثم صدر قرار بنقله إلى غرب «تينيسى» حيث تكرر تجربته مع الكشافة والجواسيس فى أكتوبر ١٨٦٢ استدعى «دودج» للعمل فى قيادة «جاكسون» ، وأسندت إليه قيادة فرقة ، وطُلب منه أن ينشئ شبكة جاسوسية .

جمع «**دودج**» قوة مكونة من ١١٧ جاسوساً ، تغطى عملياتهم ما بين «ميفيس» و «موبيل» ، وما بين «أتلانتا» و «ريتشموند» . وكان كل جاسوس أو جاسوسة يتقاضى أجرا يتناسب مع صعوبة عملياته وخطورتها ، كما يحصل على مصروفات تتراوح بين ٥٠٠٠ دولار و ١٠٠٠٠ دولار قبل القيام بكل مهمة . وجد «دودج» متعة فى نجاحه العظيم فى دعم حملة «جرانت» على «فيكسبيرج» عام ١٨٦٣ ، والإرشاد عن تجمعات عسكرية فى «ألباما» ومواقع أخرى . وقد عنى «دودج» بحماية جواسيسه عن طريق كتمان أسمائهم وإعطائهم أرقاما سرية .

ثلاث جاسوسات
فى الحرب الأهلية الأمريكية

يلعب النساء عادة فى قصص الجاسوسية دور طعم الفتنة والإغراء، أو التى تفك عقد ألسنة الرجال الكتومين ، فيبوحون صاغرين بأخطر المعلومات والأسرار . والواقع أن للقاعدة شواذاً ، ولا تنطبق على كل من اشتغلن بالجاسوسية ، فمنهن من اعتمدن على سعة الحيلة وقوة العزيمة ، وليس على إثارة الغرائز . من هؤلاء ثلاث جاسوسات نشطن فى الحرب الأهلية الأمريكية . التى دارت بين الولايات الشمالية والولايات الجنوبية فى أمريكا . هؤلاء النساء هن: بيل بويد ، وفان ليو، وروز جرينهاو .

★ بيل بويد جاسوسة بالصدفة

عاشت «بيل بويد» فى بلدة «مارتنزبيرج» بوادى «شيناندوه» بولاية «فيرجينيا» وهى ابنة فلاح جمع بين الزراعة والتجارة . كانت قد بلغت سن السابعة عشر حينما اندلعت نيران الحرب الأهلية الأمريكية ، وأقحمتها الأقدار بالصدفة فى عالم الجاسوسية ، إذ احتل جنود الشمال بلدتها ، وفوجئت بأحدهم يرفس باب بيتها ، ومن ورائه يتدفق زملاؤه ، الذين استولوا على البيت ، وأهانوا أمها ، فتناولت مسدس أبيها ، وأطلقت الرصاص على أحدهم فأردته قتيلا . شفع لها شبابها وأنوثتها فنجت من عقاب شديد، وتحولت منذ ذلك اليوم إلى جاسوسة كونفدرالية.

فى عام ١٨٦١ قامت بأعمال التمريض ونقل الرسائل بين صفوف الاتحاديين ومع تقدم الحرب اتسع نطاق تجسسها بين صفوف الشماليين وخلفها ، وكانت تعود بين الحين والآخر بمعلومات عسكرية هامة ، من بينها أنها اكتشفت أن قوات الشمال كانت تستعد لنسف كوبرى معين ، لقطع طريق إمداد الجنوبيين بمدد قادم لمساعدة الجنرال الجنوبى «**ستونوول جاكسون**» ، وكان على «**بيل**» أن تعدو عبر الحقول المكشوفة معرضة نفسها لرصاص الجنود ، لتؤدى الرسالة ، وتنقذ الكوبرى .

وفى عملية أخرى زودت الجنرال «جاكسون» بمعلومات مكنته من شن الهجوم المفاجئ الناجح على قلعة «**فورت رويال**» والاستيلاء عليها . كتب لها الجنرال

بعد احتلال القلعة خطابا شخصيا قال فيه : «أشكرك بالأصالة عن نفسى ، وبالنيابة عن الجيش ، على الخدمة العظيمة . التى قدمتها لبلدك اليوم» .

عُرفت «بيل بويد» بشخصيتها الانبساطية ، وحبها للشهرة ، وحديثها المستمر عن أعمالها البطولية ، ما كان منها حقيقيا وما خالطه الخيال ، خاصة لمندوبى الصحف ، حتى أصبحت شخصية تدور حولها أحاديث المجالس فى الولايات الجنوبية . تم القبض عليها ست مرات ، وسجنها الشماليون مرتين ، ونجت من الإعدام شنقا مرتين ، بتدخل شخصى من «**إبراهام لنكولن**» . وأخيرا ضاقت سلطات الاتحاد بها ذرعا بعد الحرب ، فنفتها إلى كندا .

طافت الجاسوسة الناجحة «بيل بويد» العالم بعد الحرب . وألقت محاضرات عن الجاسوسية من واقع تجاربها الشخصية . وانهالت عليها الدعوات من مختلف أنحاء العالم ، وكانت تقابل بالتكريم حيثما رحلت . وألفت كتابا عن تاريخ حياتها ومغامراتها ، راج أيما رواج فى أمريكا وأوروبا . وتزوجت أخيرا ضابطا بحريا فيدراليا اسمه «**سام وايلد هاردنج**» استقال من منصبه ، وهجر حياة البحر ، ليستقر مع المرأة التى أحبها .

كتب «**جوزيف هيرجشيمر**» سيرتها الذاتية فى كتاب ألفه فقال : «إن بيل بويد أشهر امرأة اهتمت بنشاط الخدمة السرية خلال الحرب الأهلية الأمريكية» . وأشارت الصحف النزيهة إليها بأنها : «ساحرة شينا ندواه» . وأنها «جان دارك الثائرة» ، و «**كليوباترة الأمريكية**» ، وغير ذلك من ألقاب الشجاعة والبطولة التى كانت تعجبها وتسعدها وتعتبرها أكثر من أوسمة .

كانت «بيل بويد» تعزو شهرتها إلى الظروف والصدفة . كتبت فى كتابها وعنوانه : «بيل بويد فى المعسكر والسجن» تقول : « جاءتنى الشهرة قدرا بقوة الظروف ، وليس من خلال رغبة منى » .

★ إليزابيث فان ليو

تعتبر أثمن جواسيس الشمال . كانت تعيش فى «**ريتشموند**» بولاية فيرجينيا قلب الاتحاد الأمريكى . كانت معروفة جيدا بدعمها للشماليين فى رغبتهم فى إلغاء الرق ، والواقع أنها أعتقت عبيدها السود منذ زمن بعيد . كانت تجهر بمناصرتها لقضية الشمال حتى أن الناس ما كانوا يشكون فى أنها يمكن أن تعمل شيئا من أجلهم .

وكان أصدقاؤها الشماليون يعتقدون أنها ملتاثة قليلا ، فأطلقوا عليها لقب «بيت المخبولة» .

فتش ضباط جيش الجنوب بيتها أكثر من مرة ، لكنهم لم يعثروا أبدا على دليل يدينها بالخيانة ، ولا هم عثروا على الغرفة السرية ، المبنية تحت السقف المنحدر ، ذات المدخل المخفى وراء خزانة بأدراج . من هنا كانت تدبر «بيت المخبولة» جاسوسيتها ، وهنا أيضا كانت تخفى عملاء الشمال والأسرى الهاربين إلى أن يدبروا لهم أمر الفرار . كان للمعلومات التى تجمعها عن طريق مأمون . كانت تكتبها بشفرة اخترعتها بنفسها ، تمررها خلال خمس محطات بالتناوب ، قبل أن تصل إلى قيادة الشماليين .

كان المخبأ الذى تخفى فيه جنود الشمال الهاربين ، غرفة ضيقة مبنية بين الجدران الداخلية والخارجية لبيتها ، مختبئة خلف خزانة أثرية عتيقة ذات أدراج ، لم يعرف أحد شيئا عن هذا المخبأ سوى ابنة أخيها ، التى تسللت ذات يوم ورأت عمتها واقفة أمام فتحة مظلمة فى الجدار ، وفى يدها طبق طعام ، وفى الظلام وقف رجل ملتح يرتدى زيا أزرق قذرا ، ويحملق بنظرات منهكة .

ابتعدت الفتاة بهدوء بدون أن تفطن إليها عمتها . ولم تحدث عمتها عن هذا الأمر ، لكنها عادت فيما بعد وتحدثت إلى الجندى فحذرها من مغبة رؤية عمتها لها فى هذا الموقف ، ونصحها بأن تنسى ما شاهدت ولا تحدث به أحدا . وظلت الغرفة السرية طى الكتمان ، حتى اكتشفها عمال الهدم بعد انتهاء الحرب .

بعد الحرب قال الجنرال «**يوليسس جرانت**» «**لبيت المخبولة**» : «لقد أرسلتى لى أثمن معلومات استلمتها من «ريتشموند» خلال الحرب والغريب أنها أنفقت ثروة على تمويل خدماتها السرية ، ولم ترد لها الحكومة شيئا مما أنفقت وتوفيت فقيرة ، يعيرها أهل فيرجينيا بخيانة قضية الجنوب .

★ روز جرينهاو

تعتبر «روز جرينهاو» الأولى من بين جاسوسات الحرب الأهلية الأمريكية من حيث غزارة المعلومات التى قدمتها . وهى امرأة من الجنوب ، عملت داخل واشنطن عاصمة الشمال بمساعدة عميلين هما : «**بيتى دوفال**» و «**ليلى ماكول**» . فى يوليو ١٨٦١ اكتشفت أن قوات الشمال يخططون للزحف نحو

«**فيرجينيا**» ، وعرفت خط سير الحملة ، فبادرت بإرسال معلوماتها ، ونتيجة لدقة معلوماتها انتصر الجنوبيون فى معركة «**بول ران**» أولى المعارك وأكثرها حساسية .

فى عام ١٨٦٤ ، كانت «**روز جرينهاو**» عائدة من مهمة فى إنجلترا ، وفوجئت بسفينة مدفعية تطارد السفينة التى كانت تستقلها ، وجنحت سفينتها ، وغرقت «روز» أثناء محاولة الهرب من السفينة الشمالية .

★ لورد بادن بويل الجاسوس الكشاف

رغم أنه استمد شهرته من كونه مؤسس الحركة الكشفية ، إلا أنه كان جاسوسا ضليعا نشطا ، غريب الأطوار ، مولعا بالأناقة ، مغرما بحل الأحاجى والألغاز ترك الدراسة عام ١٨٧٦ ، والتحق بفرقة فرسان «**الهوسار**» الثالثة عشر ، وبعد سبع سنوات خدمة فى الهند ، انتقلت فرقته إلى «**الناتال**» فى جنوب إفريقيا ، حيث تولى أول مهمة جاسوسية رسمية ، وهى الاستطلاع السرى لحدود طولها ٦٠٠ ميل .

بعد أن أمضى عامين فى إنجلترا عاد «**بادن بويل**» إلى جنوب إفريقيا فى عام ١٨٨٧ ، وعمل فى العام التالى ضابطا لمخابرات فرقة الطيران فى حملة «**زولو لاند**» ضد «**دينيزولو**» . وفى عام ١٨٩٠ عُين سكرتيرا عسكريا لعمه حاكم «**مالطا**» . وفى عام ١٨٩١ أصبح ضابط مخابرات بريطانيا لحوض البحر الأبيض المتوسط . وجد «بادن بويل» فى هذه الوظيفة مجالا كبيراً لحرية العمل واتساع نطاق المبادرة ، مكنته من استغلال مهاراته المسرحية ، لصالح المخابرات البريطانية ، مستخدما قدراته العالية فى الملاحظة واقتفاء الأثر والتقصى والتخفى ، لمعرفة تفاصيل التسليح والتحصين . فى إحدى المهام تخفى على هيئة عالم حشرات ، فتعلم مسبقا كيف يستخدم شبكة اصطياد الفراشات .

لورد بادن بويل

وتلقى ذات يوم أمرا بالتحقق من صحة شائعة عن أن حوضا جافا لبناء السفن يجرى إنشاؤه فى «**هامبورج**» . فمثل دور المخبول ، وبلل ملابسه لتأكيد حالته . وسرعان ما اعتقله رجال الشرطة العسكرية الألمان ، لكنهم انخدعوا بمظهره وتمثيله ، وصدقوا أنه مخبول وعاجز عن إدراك أى أسرار ، فأطلقوا سراحه.

فى أوائل حرب البوير الثانية ، أسندت إليه مهمة الاستطلاع فى جبال «**دريكنز بيرج**» ، ونجح فى عقد صداقات مع عدد من الفلاحين البوير . وخلال الدفاع التالى عن «**ميفكيبخ**» جند عددا من فتيان الكشافة «**الزولو**» ، ودربهم ، ورفضوا بشمم وثبات قبول أى أجر مقابل نجاحهم فى جمع معلومات على جانب كبير من الأهمية . اقتنع «بادن بويل» خلال الحملة بأن أصبع ألمانيا كان المحرك الرئيسى للمقاتلين البوير ، لكنه كان عاجزا عن إقناع السلطات فى لندن بوجهة نظره .

رغم ما عرف عن «بادن بويل» من شذوذ وانحرافات ، إلا أنه كان كتوما شديد الحذر والتستر . خدم بلاده فى ميدان الجاسوسية فى جميع أنحاء أوروبا ، وجنوب إفريقيا ، وتركيا ، والجزائر ، وتونس ، والصحراء الكبرى ، فلا عجب أن كرمته بريطانيا بمنحه لقب لورد . وتوفى «بادن بويل» عام ١٩٤١ .

★ بيفنو أزيف الجاسوس المتسفز

كان «**بيفنو أزيف**» طالبا روسيا فقيرا يدرس الهندسة ، فى مدرسة الفنون التطبيقية الألمانية فى « **كارلسروه**» . كان معه طلبة روسيون كثيرون فى المدرسة ، لهم وجهات نظر ثورية . فى ٤ أبريل ١٨٩٣ قرر «أزيف» أن يكسب مزيدا من النقود . فكتب لجهاز الشرطة السرية الروسى المسمى « **أوتشرانا**» ، عارضا أن يتجسس على رفاقه الثوار ، أجابت عليه الأوتشرانا بقولها : «نحن نعرف كل شئ عن مجموعة كارلسروه ، ولسنا مهتمين جدا بها . لذا فأنت لست ذا قيمة عظيمة لنا ، وعلى أى حال ، نحن مستعدون لأن ندفع لك على شروط ، أولها أن تكشف لنا النقاب عن اسمك» وما أسرع ما بدأ عمل «أزيف» كجاسوس شرطة ، بعد ذلك .

خلال الشهور القليلة التالية ، تحول «أزيف» الصامت إلى ثائر متحمس ، وتأثر به رفاقه فى « كارلسروه» . بدأ يحضر الاجتماعات الثورية الكبيرة ، وانضم إلى «

اتحاد الثوريين الاجتماعيين » بالخارج الذى شُكل مؤخرا تظاهر بأنه رجل أعمال لا أقوال يضيق بالتشدق بالنظريات ، ويتوق للقيام بأعمال إرهابية داخل روسيا .

لم ينخدع الجميع بمظهر «أزيف» . اتهمه أحد الثوار علنا بأنه جاسوس ، لكن «أزيف» أقنع الآخرين ببراءته . فطردوا الثائر المنحوس من الجماعة .

ومما يذكر أن رأى الأوتشرانا فى «ييفنو» كان مناقضا لما جاء فى الرد على الطلب الذى قدمه للالتحاق بالجهاز عام ١٨٩٣ ، إذ جاء فيه النص التالى : «ييفنو أزيف ذكى ماكر . وهو على اتصال وثيق بطلبة شبان يهود يعيشون فى الخارج ، ولذا يمكن أن يكون ذا فائدة حقيقية لنا كعميل ، ولأنه طماع ويمر حاليا بحاجة شديدة إلى المال ، يمكن الافتراض بأن حالته ستجعله أكثر حماسا فى أداء الواجب» .

هذا ما حدث بالفعل . ارتقى تدريجيا على سلم قيادة جماعة الثوار . وضاعفت له «الأوتشرانا» الأجر ، لأن تقاريره ارتفعت قيمتها أكثر فأكثر ، فقرروا أن يتجسس على الإرهابيين داخل روسيا ذاتها ، وعاد «أزيف» إلى موسكو ، وخان زعيم المنظمة الإرهابية . وشى به لدى «الأوتشرانا» . ارتبك الإرهابيون عندما اعتقل زعيمهم ، فقفز «ييفنو أزيف» ـ رجل الأفعال لا الأقوال ـ إلى مقعد الزعامة .

بدأ «أزيف» يوجه فريقا من السفاحين يقترفون جرائم إرهابية ضد سادته ، بينما يحصل منهم على مبالغ ضخمة من المال . بتدبير «أزيف» لقى وزير الداخلية الروسى «بليهف» مصرعه ، حيث نسفت عربته بقنبلة عام ١٩٠٤ . وبعد أشهر قلائل قتل الدوق «**سيرجى الأكبر**» ، عم القيصر . وأصبح «أزيف» بطلا ثوريا ، وخبير الاغتيالات الأعلى .

لماذا صبرت عليه « الأوتشرانا » حتى تجاوز الحدود؟ كان عميلهم الأول وربما اعتقد رؤساء «الأوتشرانا» أنه يحتاج إلى نجاحاته الدموية ليعزز مركزه على قمة جماعة الثوار ومهما يكن من أمر ، فقد أنهى الثوار نفوذ «أزيف» بعد أن اكتشفوا علاقته بالأوتشرانا ، ولما أدرك أن خيانته قد افتضحت هرب إلى الخارج .

لمن كان ولاء «أزيف» وتعاطفه؟

ظلت الإجابة على هذا السؤال سرا حتى الآن . أجاب رئيسه فى «الأوتشرانا» فيما بعد بأن «أزيف» كان لا يحمل ولاء ولا تعاطفا إلا للمال. ربما كانت هذه

هى الحقيقة النهائية ، ومع ذلك فإن «أزيف» قابل رفيقا من جماعة الثوار السابقين ، وقال له معاتبا الجماعة : «لو لم تتخلوا عنى ، لقتلت القيصر» .

توضح حالة «ييفنو أزيف» إلى أى حد تضخم عدد جواسيس «الأوتشرانا» ، ومدى اتساع السلطات التى أتيحت لهم ، حتى لم يعد رؤساء هذا الجهاز قادرين على التحكم فيه ، فانحرف عن الغاية التى أنشئ من أجلها . وبدلا من استخدامه فى التصدى للثوار والحيلولة بينهم وبين خلع القيصر إمبراطور روسيا ، فقد الاتجاه الصحيح ، وضل رؤساؤه الطريق ، ولم يعودوا قادرين على التمييز بين المخلصين والمخادعين . وتحولت «الأوتشرانا» إلى سيف مسلط على حكومة روسيا .

★ الأوتشرانا بعث عقيم للأوبريتشنينا الروسية

تعتبر «**الأوتشرانا**» بعثا «**للأوبريتشنينا**» ، أول جهاز بوليسى سياسى روسى، أسسه «**إيڤان الرهيب**» عام ١٥٦٥ ، وتخلص منه عام ١٥٧٢ ، بعد أن احتدت شوكته فأصبح خطرا على «إيفان» نفسه . ولدت الأوتشرانا فى عهد الإمبراطور «**الكزاندر الثانى**» قيصر روسيا . لكن الجهاز لم تكتمل قدراته إلا فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر . وفى عام ١٩٠٠ بلغ عدد رجاله ١٠٠٠٠٠ عميل يتقاضون أجورهم من ميزانيات مدن روسيا الرئيسية ، وكانت عملياتهم تنتشر فى جميع أنحاء روسيا وعواصم كثيرة فى الخارج . وعلى الرغم من أن «الأوتشرانا» حقق نتائج جيدة ، إلا أن كثيرا من الثوار استطاعوا اختراقه بسهولة ، كما تمكن البلاشفة من تدميره بدون مجهود يذكر حينما استولوا على السلطة عام ١٩١٧ .

القيصر نيقولا الثانى عام ١٩١٤ قبيل الحرب العالمية الأولى

على الرغم من أن جهاز «الأوتشرانا» لم يكن مسئولا مسئولية مباشرة عن تدبير المذابح ، إلا أنه كان ضد السامية ، ويأخذ عليه اليهود دفع الكثيرين منهم إلى أحضان الماركسيين . فى عام ١٨٩١ حصل ضابط أوتشرانى على جائزة مقدارها ١٠٠٠٠

روبيل لتفوقه فى عمليات التحريض ضد اليهود بتوزيع النشرات .

فى عهد الإمبراطور **نيكولاس الثانى** ، بلغ عدد الثوريين المهاجرين الذين يستعدون للإطاحة بالقيصر ٥٠٠٠ رجل ، واتخذت وكالة الأوتشرانا الخارجية من مبنى السفارة الروسية فى «باريس» مقرا لها ، حيث كانت العاصمة الفرنسية مركزا لتجمع المهاجرين السياسيين عام ١٨٨٢ ، تولى رئاستها «**بايوتر راتشكوفسكى**» ، وهو أحد سجناء الأوتشرانا ، خُيِّر بين النفى إلى «**سيبيريا**» أو العمل فى الأوتشرانا ، وسرعان ما انتعشت عملياتها ، استغل المراقبين الخارجيين من البوابين ، والخدم ، والباعة الجائلين ، خدم المطاعم والفنادق ، واستعان بالعملاء الداخليين من رجال البوليس السرى ، والعملاء المزدوجين ، فى جمع ثروة من المعلومات ، لم يتم تقييم معظمها حتى الآن .

وتكونت وكالات أجنبية أصغر فى لندن ، وبرلين ، وروما ، وجدت تشجيعا بعد أن فجرت طوفانا من الفوضى ، وطالبت بموت «**كارنوت**» رئيس فرنسا عام ١٨٩٤ ، و «**أنتونيو كانوفاس ديلكاستيلو**» رئيس وزراء أسبانيا عام ١٨٩٧ ، والإمبراطورة «إليزابيث» ملكة النمسا والمجر عام ١٨٩٨ ، والملك «**أمبيرتو**» فى إيطاليا عام ١٩٠٠ . لم يقتصر نشاط الوكالة الأجنبية على جمع المعلومات ، ولكنها مارست مجموعة مختلفة من الأنشطة التى تؤثر على الحكومات الأجنبية والرأى العام . والتصرفات الخاصة ، بما فى ذلك أعمال العنف .

أسهمت الأوتشرانا أعظم إسهاماتها فى سياسة القيصرية الخارجية فى ميدان «**إشارات المخابرات**» . اتخذت لمحاكم التفتيش مقاراً فى مكاتب البريد. فى «**سان ستراسبورج**» ، وموسكو ، ووارسو ، وأوديسا ، وكييف ، وخاركوف ، وريجا ، وفيلنا ، وتومسك ، وتفليس ، لحصر ومراقبة البريد الصادر والوارد ، من وإلى الأشخاص الموالين أو المعارضين . وكانت الرسائل الشفرية ، ترسل إلى «إيڤان زايبين» لحلها .

كانت الرسائل الدبلوماسية المرسلة بالتلغراف الكهربائى توقف روتينيا . تولى «**الكزاند سافنسكى**» محكمة تفتيش وزارة الخارجية من عام ١٩٠١ إلى عام ١٩١٠ ، استخدم خلال تلك الفترة مختلف الوسائل للحصول على شفرات السفارات ، بما فى ذلك الشراء والسرقة .

استمر نشاط الأوتشرانا الروسى بشكل روتينى حتى اشتعل فتيل الحرب العالمية الأولى . ومما يدعو إلى السخرية أن الأوتشرانا عجزت عن حل شفرة ألمانية جديدة ظهرت عام ١٩١٢ . وتم توظيف عدد من قراء الشفرة عامى ١٩١٧ و ١٩١٨ بواسطة البولشفيك ، لكنهم لم يلبثوا أن أحاطوا بهم ، وأعدموا معظمهم .

★ ألفريد ريدل وكرة الأوبرا

ألفريد ريدل

كان جهاز الخدم السرى النمساوى من أفضل أجهزة المخابرات فى العالم ـ تم تحديثه بواسطة «**ألفريد ريدل**» . الذى ترأس الجهاز من عام ١٩٠٧ إلى عام ١٩١١ ، فأدخل عليه وسائل جديدة كثيرة ، وكوفئ على إنجازاته بمنصب جديد فى الجيش ، وشغل مكانه رجل كفء آخر اسمه «**رونج**» قبيل نشوب الحرب العالمية الأولى بقليل .

كان «رونج» رجلا ضليعا متمكنا من عمله . حينما زادت احتمالات وقوع الحرب فى أوروبا ، بدأ يطبق بحزم نظام مراقبة البريد . وفى مارس ١٩١٣ اكتشف خطابين معنونين إلى مكتب بريد فى «فيينا» بالاسم الشفرى : «**كرة الأوبرا ـ ١٣**» . اتضح أنهما مرسلان من بلدة قرب الحدود الروسية ، مما جعلهم أكثر شكا لأن روسيا كانت عدوة النمسا . ولما فضت الرقابة الرسالتين ، وجدوا فيهما ١٤٠٠٠ كروز ، أى ما يعادل ٩٠٠ جنيه إسترلينى، فثار سؤال حول ما إذا كان المال أجر جاسوس .

وضع جرس سرى فى مكتب البريد . وربض رجلا شرطة سرية فى مركز الشرطة الملاصق «لكرة الأوبرا» ، لالتقاط الرسائل .

مرت الأسابيع ولم يحضر أحد ، فأصاب الملل رجلى الشرطة السريين . وفى ١٤ مايو ، دخل رجل مكتب البريد ، وطلب الرسائل . لم يكن المخبران موجودين . كان أحدهما قد ذهب إلى دورة المياه ، وكان الآخر يغسل يديه . دق رجل البريد الجرس ، وحاول تأخير المشتبه فى أمره ، لكن الشرطيين لم يصلا إلا بعد أن انصرف الرجل فى سيارة أجرة . بعد استلام الرسالتين .

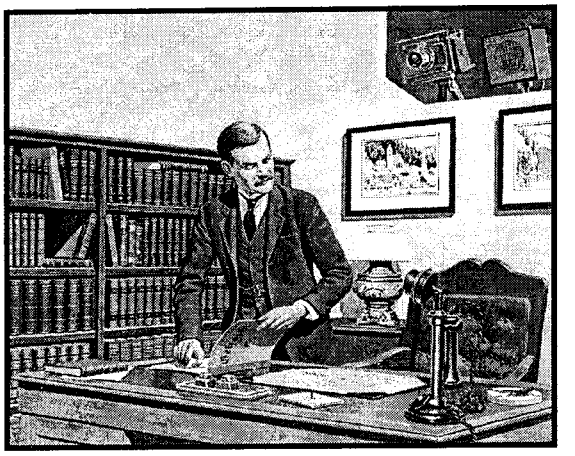

مكتب ريدل وأدوات التجريم

ارتاع الشرطيان ، لكنهما انتظرا عودة السائق ، وعلما منه أن الرجل نزل فى مقهى ، فاسرعا بالذهاب إليه ، فإذا به قد اختفى ، استقل سيارة أجرة أخرى متجها إلى فندق . ومرة أخرى أسرعا بملاحقته ، وهما لا يعرفان ملامح الرجل وهيئته ، إلا أنهما عثرا على غمد خنجر فى أرضية إحدى السيارتين اللتين استأجرهما .

فكرا فى حيلة : طلبا من بواب الفندق أن يسأل كل نزيل جديد ما إذا كان قد فقد غمد سكينة ، ثم انتظرا فى صالة الاستقبال ، وتظاهرا بقراءة الصحف . شاهدا رجلا فى منتصف العمر يهبط الدرج . عرض عليه البواب الغمد ، فأمن على أنه صاحبه وأخذه . وهكذا أوقع المخبران بالفريسة ، ولشد ما كانت دهشتهما ، لأنهما تعرفا على الرجل من أول وهلة .. إنه الكولونيل «الفريد ريدل» ، الرئيس السابق للمخابرات النمساوية .

ترى هل كان الرئيس السابق لمخابرات النمسا يلعب دور الجاسوس المزدوج؟ .. اتصل أحد المخبرين بالرئيس الجديد ، بينما اقتفى الآخر أثر «ريدل» كظله خلال شوارع «فيينا» ولابد أن «ريدل» شعر بأن هناك من يتبعه، وأن المباراة قد انقضى أمدها ، فعاد أدراجه إلى الفندق ، وحضر إلى الفندق فى تلك الليلة أربعة ضباط للقبض عليه .

قال لهم : «أعرف سبب مجيئكم» واستأذنهم فى كتابة كلمات قليلة بعد أن يخلوا له الغرفة وقبل أن يغلقوا باب الغرفة وراءهم استعار مسدس أحد الضباط ، وقال لهم إنهم سوف يجدون كل ما يريدون معرفته عن نشاطه الجاسوسى فى بيته بمدينة «**براغ**» .

كتب «ألفريد ريدل» كلمة وداع ، وضغط على زناد المسدس بعد أن صوبه إلى رأسه ومات منتحرا . نصت رسالة الوداع على ما يأتى : «قضى علىّ الطيش والنزق. أنا أدفع حيـاتى ثمنا لذنوبى . الساعة الآن الواحدة والربع ، وسوف أموت الآن . أرجو ألا تسمحوا بتشريح جثتى . صلوا من أجلى .... ألفريد» .

لم تنجب النمسا على مدى تاريخها جاسوسا عبقريا مثل «ريدل» ، إلا أنه كان مولعا بالشهوات مغرما بالملذات ، مما أغرقه فى الديون ، فلما عرض عليه الروس مالا مقابل أسرار النمسا ، وافق ، وظل يزودهم بمعلومات حيوية لمدة عشر سنوات.

كرئيس للخدمة السرية ، استخدم وسائل جديدة كثيرة ، فكان يستقبل المشكوك فى أمرهم داخل غرفة مملوءة بأجهزة وأدوات لتجـريم ضحاياه ، منهـا :

١ ـ صندوق سجائر مغلف عادة توضح البصمات .

٢ ـ جهاز لتسجيل صوت المشتبه فيه على أسطوانة حاكى ، حيث لم تكن أجهزة التسجيل الإلكترونية قد ظهرت بعد .

٣ ـ آلة تصوير مخفية .

٤ ـ ملف أوراق معنون بكلمة «سرى» ، مكسو بمادة توضح البصمات . وكان «ريـدل» يترك الملف وصندوق السجائر على مكتبه ، ويغادر الغرفة ، وقد يعجز الزائر عن مقاومة رغبته فى الاطلاع على الأسرار ، مما يكشف لرئيس المخابرات مدى جدارته بالثقة .

ويذكر أن أخطر خيانات «ريدل» لبلاده وأشهرها ، أنه أعطى الروس نسخة من خطة النمسا للهجوم على الصرب ، وكان الروس أصدقاء الصرب وحلفاءهم ، فزودوهم بالخطة . واندلعت نيران الحرب بسرعة ، ولم يكن لدى النمسا وقت لتعديل الخطة ، فهاجموا «صربيا» ، وقرأ العالم كله عن النصر المؤزر للصرب ، ولم يعرف أحد آنذاك أن خيانة «ريدل» هى سر انتصار الصرب . وقدر الخبراء العسكريون أن خيانة «ريدل» كلفت النمسا نصف مليون مقاتل بين قتيل وجريح.